

أدب الرحلة ومكانته في الثقافة الإسلامية

د. جيلالي صاري *

إن المقاربة المقترحة في هذا البحث ترتبط أشد الارتباط بالبيئة الاجتماعية التاريخية والثقافية وذلك تأكيداً لدينا ميكية وأصالة من نوع جديد، ساهمت في إثراء التراث العربي الإسلامي وهي اليوم على وشك العبور إلى عهد جديد جاء بعد تتويج مؤلف رحلة ابن فطوم (1983) نجيب مخطوط أول حائز على جائزة نوبل في الأدب العربي.

فمنذ ظهور- النموذج - لابن جبير من 578-581 هـ / 1183-1185 م، فقد أثرى هذا النوع الأدبي الجديد مضمون التراث العربي الإسلامي. أما مساهمة الجزائر في هذا المجال، فإن النموذجين المأخوذين على سبيل المثال، رحلة ابن مسايب ورحلة الورتيلاني، يكتسبان صبغة اجتماعية ثقافية وتاريخية بالنسبة لمناطق تمثل عمق الجزائر قبيل سبعة عقود من الزمن على العدوان الاستعماري الفرنسي، لاسيما منها تلك المناطق المجهولة.

*. أستاذ بجامعة الجزائر.

المقارنة العامة

وإذا كان مدلول كلمة "الرحلة" أدبيا ولغويا لا لبس عليها وجبت الإحاطة بمعانيها ضمن إطارها الصحيح.

يشير القاموس أن الفعل الثلاثي "رَحَلَ" وعددا من مشتقاته يدلان على النقل والحركة عامة، أي انتقال شخص أو جماعة من مكان إلى آخر. وقد يدل معنى أحد المصادر وهو "الرَّحْل" يدل على كل ما يحمل على ظهر البعير، أي السرج وكذا الحمولة المحتوية على اللوازم الضرورية أثناء التنقلات. أما مصدر "رحلة"، فيدل على المقصد، أي السفر ومن ثمة السرد بخصر المعنى. يرى ا.ر. نيتون (I.R. Netton, 1995, VIII : 546) أن مفردة "الرحلة" تفيد تسريع البعير، ومن ثمة الرحلة بوجه عام.

ثم يضيف أن لفظة "الرحالة" تحمل نفس المعنى تقريبا مثل العبارة الإنجليزية globe-trotter أي شخصا كثير السفر في مختلف أنحاء العالم. وبما أن التحرك كان مرهونا بالوسيلة الوحيدة المتوفرة آنذاك، ألا وهي البعير، فإن الاصطلاح المستعمل اختلط بنمط عيش فرضه طقس صحراوي شديد القحولة، أي حياة بدو عُرفوا بالبدو الرحّل. وهناك كلمة أخرى مشتقة كانت، حسب مصطفى لشرف، مستعملة في القرن التاسع عشر في الأرياف الجزائرية في سياق تاريخي معين¹.

1. يتحدث مصطفى لشرف (1998 : 13) عن لفظة مشتقة، وهي "مرحول" وردت على لسان والده سنة 1940 فيما يخص ظروف نشأة جده سنة 1844 بـ "ذلك المخيم الطائر" بكاف أفول بمنطقة الحضنة، أي وقت غزو القوات الفرنسية المحتلة بحجرة السكان على الرحيل. وهذه لفظة بدوية كانت مهجورة في تلك الفترة. المعنى العام للمفردة، يقول لشرف، يفيد تغيير مكان الإقامة، وفي الوقت ذاته، السير الجماعي المنظم.

ومهما يكن من أمر فإن المفردات المشتقة من هذا الجذر تظهر أربع مرات في القرآن، ثلاث منها تخص "رحالهم" (يوسف، الآيات 62، 70، 75) وواحدة تخص أسفاراً وقعت فعلاً قبل الإسلام ألا وهي "رحلة الشتاء والصيف" (قريش، الآية 2)¹.

مما تقدم، نستخلص أن الأمر يتعلق فعلاً بأسفار كانت تقع، أي أسفار ذات قصد خاص. لو رجعنا إلى أحد الأحاديث النبوية التي تحث على السفر لوجدنا أن الأمر لا يتعلق فقط بحب رؤية أمصار أخرى واكتشاف أمكنة غير معروفة وإنما أيضاً، وخاصة، من أجل الاطلاع والتعلم؛ ومن ذلك أتى ذلك الحديث المشهور الذي يوصي فيه الرسول المؤمنين بالتعلم إذ يحثهم على طلب العلم "ولو بالصين". كما أن هناك حديثاً آخر يصب في نفس الاتجاه ويؤكد: "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، أي منذ الطفولة إلى الوفاة.

أكثر من ذلك، ومن الناحية العملية، نجد أن واحداً من أركان الإسلام الخمسة يدعو، ولو بصورة غير مباشرة، إلى السفر، ألا وهو ركن الحج. إنه ليس مجرد حث على السفر وإنما فريضة يجب تأديتها إن توفرت الشروط فيستطيع الحاج بفضلها وهو يؤدي مناسك الحج أن يزور أماكن مختلفة قبل الحج وأثناءه وبعده، كما يلتقي أناساً كثيرين في

1. وردت الآية، التي نتحدث عن قريش، هكذا: "إيلافهم رحلة الشتاء والصيف". وقد علق عليها محمد حميد الله (1985): 822-823 بقوله: "بالنسبة إلى رحلة الشتاء... نحو السنة 467م، لقد سبق للمكيين أن أبرموا مع كل من الإمبراطور البيزنطي وأميراطور فارس وملك الحبشة وملك حمير موائيق تسمح لهم بالتردد على بلدان هؤلاء بقوافلهم التجارية. لقد كان من شأن ذلك أن غير اقتصاد البلد وأدى إلى هيمنة المكيين على أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام.

كل من مكة والمدينة. ففي كل من الذهاب والإياب، يضطر الحجاج إلى التوقف في أماكن معينة كثيرا ما تكون عبارة عن مراكز إشعاع للثقافة والمعرفة فيغتنمون الفرصة للاطلاع والتعلم في كنف الخشوع. أضف إلى ذلك أن هناك بعض الأماكن المشهورة التي تجذب الحجاج إليها وتستوقفهم لبعض الوقت ؛ وهو ما يقع للمغاربة حينما يتوقفون بتلك الزوايا الشهيرة المنتشرة عبر المناطق التي يعبرونها في طريقهم الطويل إلى مكة، بالإضافة إلى جامعات ذاع صيتها لاسيما الزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة. أما بعد وصولهم إلى البقاع المقدسة، فإن الحجاج يغتنمون فترة إقامتهم بكل من مكة والمدينة للاستماع إلى خطب ودروس يقدمها علماء إسلام أجلاء. كما يقيمون علاقات مثمرة بفضل تواجد الكثير من الشخصيات البارزة في عالم الآداب والعلوم قدموا من مختلف الأوطان النائية.

لاشك أن الإسلام، من خلال المبادئ التي يقوم عليها والأغراض التي يتوخاها، يعيد تحديد مكان المؤمن في فضائه ليس فقط لأنه يحثه على التعلم الدائم وإنما يطلب منه أيضا أن يتنقل في أي مكان من أجل هذا الغرض سواء تعلق الأمر بمراكز الإشعاع الثقافي والعلمي أو بالحج إلى البقاع المقدسة مرة في العمر على الأقل. إن كل هذه المناسبات والوصايا قد نسجت شبكات برية منظمة، كما أن طرق تعاطي التجارة واكتساب المعرفة لها دور كبير في إثراء العالم الإسلامي على المستويين المادي والروحي ذلك أن هذه الطرق لم تكن تجلب فقط مواد استهلاكية غير معروفة لدى المسلمين وإنما أيضا

مخطوطات كثيرة من أماكن نائية بما في ذلك من إفريقيا كما تشهد على ذلك مدينة تمبوكتو التي تضم مجموعة من الذخائر العربية الإسلامية. في هذا السياق، نذكر، مثلاً، ذلك المخطوط الأندلسي القيم الذي كان أول مخطوط من نوعه في مجال نقد النصوص الأدبية العربية القديمة والذي كان يُظن أنه فُقد إلى الأبد. يتعلق الأمر بمؤلف الرندي الذي لم يتم اكتشافه إلا في الثلاثينيات من القرن العشرين من طرف عالم جزائري يدعى أحمد بن حموده (انظر M. Lacheraf, 1998 : 83-84).

نوع أدبي جديد

حتى وإن كانت "الرحلة" تنتمي إلى حد ما إلى الكتابات التاريخية والكتابات الجغرافية إلا أنها تختلف عنها على الأقل من حيث أنها صارت نوعاً أدبياً موجهاً إلى جمهور عريض.

وبالفعل، لقد انطلقت الرحلة في البداية من الحج ثم شهدت بعد ذلك تطوراً جعلها تدرج في سياق الاكتشافات الجغرافية التي عرفتھا الفترة العباسية بـ "المسالك والممالك"، أي في أوج الخلافة العباسية وما بلغته من رقي في مجالات التجارة والثقافة والمعرفة كما يبينه أ. ميكال (A. Miquel, 1975 : 272). لقد بدأ هذا التطور على يد كورداديه (280هـ - 893م) ثم تواصل بخطى حثيثة على يد كوكبة من الجغرافيين. تاريخياً، تُحدّد الفترة التي عرفت أوج أدب الرحلة في القرن الرابع هجري الموافق العاشر ميلادي.

"تقوم جغرافيا المسالك على معالم أساسية، فهي جغرافيا محددة لموضوعها مدركة لهدفها ألا وهو الإسلام. فهي جغرافيا ذات طابع إنساني لأنها تتناول كل ما تعتبره هاما في دراسة حياة الإنسان على أرضه، إنها جغرافيا ملموسة عاشت في المغامرة مستقية معظم معطياتها من الملاحظة المباشرة، جغرافيا لا تفصل بين تسجيل هذه المعطيات وإمكانية نقلها فهي جغرافيا قائمة على التحرير والتسجيل.

في هذه الحالة، "الرحلة" لا يمكن أن تتبع الطرق المعهودة. ولما جاء ظهورها متأخرا بعد العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية، فإنها لا تستطيع أن تدعي أي تخصص. وعليه، "ينبغي أن ينظر إليها وتستعمل كنوع أدبي شبيه بغيره"، يقول إ.ر. نيتون (I.R. Netton, 1995, VIII : 546). أبرز ممثل لهذا النوع الأدبي هو الأندلسي ابن جبير (540-614هـ / 1145-1217م) الذي قام برحلة بدأت سنة 578هـ - 1183م وانتهت سنة 581هـ - 1185م، وثانية ثم ثالثة. لكن الرحلة الأولى فقط هي التي تم تدوين وقائعها، هذا التدوين الذي كان محل تحليلات عديدة من طرف المستشرقين منذ القرن التاسع عشر ميلادي من أمثال أماري (Amari, 1846) ونيتون (I.R. Netton, 1993) في القرن العشرين.

أما فيما يخص "رحلة" ابن بطوطة (703-770هـ / 1304-1377م)، فإنها جاءت أغزر بكثير بفضل طول المسافة التي قطعها الرحالة من مدينة طنجة، مسقط رأسه، إلى بلاد الصين، ودامت سنوات طوالا قطع فيها أوطانا كثيرة من 725-754هـ / 1325-1353م. إنه يمثل فعلا نوع "الجوال"

(globe-trotter) في عصرنا. غير أن سرد الرحلة قد وقع تحريره سنة 756هـ - 1356م إذ أملاه ابن بطوطة على متعلم يدعى ابن جزي (693-756هـ / 1321-1355م).

ومع ذلك، فإننا سنقتصر على العمل الرائد في هذا المجال والذي قام به ابن جبير لاسيما وأن عمل ابن بطوطة غير خال من عدم الدقة في بعض الأحيان والاتصال في أحيان أخرى (انظر Sourdel-Thomine, 1975, III : 758-759).

رحلة ابن جبير

قبل أن يبدأ ابن جبير رحلته في ظروف معينة، كانت له علاقات وثيقة بالحاكم الموحيدي بغرناطة، أبو سعد عثمان بن عبد المومن لأنه كان كاتبه الخاص. أضف إلى ذلك أنه برز بأعماله الأدبية النفيسة من نثر وشعر معا بفضل ما كان له من ثقافة غزيرة حصل عليها في تلك المدينة التي اشتهرت بتطور الوراقة وعرفت بالشطبية (Xativa) المحاذية لمنطقة فالانسيا¹. وعندما قرر القيام برحلته الأولى، فإنها للتكفير عن ذنوبه.

لأجل ذلك، غادر ابن جبير مدينة غرناطة، في 19 من شوال سنة 578هـ الموافق لـ 15 فبراير سنة 1183م، متوجها إلى مدينة سبته عبر الطارفة، ومنها إلى الإسكندرية على متن سفينة من جنوا مرورا بكل من ساردينيا، صقلية، وكريت. كان خلال هذه الرحلة كلها يلاحظ

1. هذه المدينة أخذت تسميتها من هذه المادة التي كان الورق يصنع منها. وخلال زيارة قادتنا، سنة 1998، إلى هناك، أمكننا ملاحظة عرضا يبين ذلك الماضي المجيد. كما وجدنا الأراضي المحاذية لمنطقة فالانسيا شاهدا حيا، هي الأخرى، على وجود نظام سقي في منتهى الإحكام، أي ما يعرف هناك بالـ huerta الذي اشتهرت به هذه المنطقة وسميت به.

أمورا ويدونها. لقد استغرقت الرحلة البحرية زهاء شهر للوصول إلى مدينة الإسكندرية التي غادرها نحو القاهرة ومنها إلى صعيد مصر ليتجه بعد ذلك، عبر البحر الأحمر، إلى مدينة جدة، ومنها إلى مكة حيث أدى مناسك الحج وأقام بها مدة تسعة شهور. لقد زار المدينة وقطع الصحاري إلى غاية مدينة الكوفة ثم بغداد والموصل. بعد هذه الرحلة إلى أرض العراق، عاد قافلا إلى شبه الجزيرة العربية لكنه لم يستطع أن يصير على زيارة الحاضرة السورية حلب ورؤية رونق جبل لبنان، ومنهما إلى غاية عقاد بعد زيارة قصيرة إلى دمشق.

في نهاية هذه الرحلة النفيسة، استقل ابن جبير في عكة مركبا صغيرا جدا ولم يتخذ الحيلة اللازمة، عكس ابن بطوطة. إلا أنه ألح على كبر السفينة وهو متوجه نحو مسين، وكانت سفينة شراعية قادرة على حمل ما لا يقل عن ألف مسافر، بل أكثر حسب أ. غاتو (A. Gateau, 1949 : 298) حيث يقول "كانت سفينة عالية مثل الأسوار... لكن الأمواج كانت تميد بها مثل الغصن الطري".

بالإضافة إلى ذلك، تجدر الإشارة هنا إلى أن ابن جبير يدون، يوما بعد يوم، ما رآه في رحلته واصفا البلد الذي مر به ومشيرا إلى عدد هائل من المعلومات بشأن سكانه ؛ مما جعله، كما يقول (Ch. Pellat (1975, III : 778) : "مرجعا نفيسا في ما يخص تاريخ الحروب الصليبية، ظروف الملاحة بعرض البحر الأبيض المتوسط أثناء القرون الوسطى، الأحوال السياسية والاجتماعية للأماكن التي عبرها، الحج إلى مكة". ثم يردف قائلا (نفس المرجع) :

"كان أول المراجع والأكثرها توفيقاً صدر في هذا الشأن، وقد شكل نموذجاً بالنسبة إلى حجاج آخرين كثيرين. كما أن هناك العديد من المؤلفين بعده ممن نهلوا من هذا المرجع من دون أي حياء". كما يرى هذا الكاتب أن السرد في بعض المقاطع قد جاء على منوال المحققين الصحفيين العصريين لأن ابن جبير "كانت له البراعة في تصوير ما كان يراه. كما أن أسلوبه في السرد جاء معبراً وسلساً ؛ مما أضفى عليه سمة من السمات التي تميزه في عصره".

أما فيما يخص النص الكامل للرحلة، فلم يتم نشره إلا سنة 1852 بمدينة ليدين الهولندية من طرف و. ورايت W. Wright ثم راجعه ونقحه ج.م. دو جوج J.M. Goeje سنة 1907. هذه الطبعة الأخيرة هي التي اعتمدت عليها طبعة أخرى مصرية رديئة وصدرت بالقاهرة سنة 1326هـ-1908م. غير أن ح. ناصر قام بإصدار طبعة أخرى أحسن بكثير بالقاهرة سنة 1374هـ-1955م. ومنذ ذلك الحين، صدرت ثلاث ترجمات لرحلة ابن جبير : واحدة إلى اللغة الإيطالية قام بها C. Shiaparrelli (روما 1906)، والثانية إلى اللغة الإنجليزية من طرف Broadhurst (لندن 1952)، والثالثة إلى اللغة الفرنسية وقام بها M. Gaudefroy-Demonbynes (باريس 1949-1956، في ثلاثة أجزاء).